السمات التركيبية في الأدعية القرآنية:دراسة بلاغية

Structural Features of Qur'anic Supplications: Rhetorical Study

الدكتور عبد المجيب محمد نصير الدين*

ABSTRACT

The article contains structural features of Qur'anic supplications in the light of rhetorical standards set out by specialists of the field. It sheds light on fronting and postponement and their different forms as it depicts reinforcement and its places followed by the use of articles and their values patterns. The use of article(ال) and other for the study of these features, choice of a group of such supplications was made as were used by prominent Du'at in the Holy Quran. Analysis was made so that the inherent beauty in the Qur'anic text is delineated. Help has been taken from the important sources on both the exegetic and rhetoric levels.

To sum up the study contains rhetorical gems which ALLAH Tala has bestowed his book.

* أستاذ محاضر بقسم الدراسات الأدبية، كلية اللغة العربية، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد، باكستان.

مقدمة

الدعاء تعبير طبيعي عن إحساس نفسي وشعور حي لدى الإنسان، الذي يدرك وجود حقيقتين في حياته: الله، والإنسان، ويدرك النسبة الحقيقية بين الوجودين: وجود الله الذي هو مصدر الغنى والكمال والإفاضة في هذا العالم، ووجود الإنسان الذي هو وعاء الفقر والحاجة والمسكنة، المتقوّم بالإفاضة والعطاء المستمر. فهذا التصوّر للعلاقة الحقيقية بين الوجودين، وجود إلهي، وهو المبدأ والمصدر في إيجاد الإنسان، وإفاضة الخير والرحمة والبقاء عليه، ووجود إنساني صادر عن ذلك المبدأ، ومتعلّق به، ومتوقّف عليه، ومتوجّه نحوه دوماً لطلب الإفاضات والكمالات التي تسدّ نقص الوجود الإنساني، وتغني فقره وحاجته في كل شيء، مثل استمرار بقائه، واستقامة حياته، ورقيّه وتكامله، وإصلاح نفسه ومدّه بحاجاته، وإعانته على مشاكله ومصاعبه، وإنقاذه وخلاصه، فانّ هذا التصوّر هو الذي يفرض هذه العلاقة، وينتج هذا الشعور الذي يقود إلى توجّه النفس البشرية إلى مبدئها الذي يهبها ويمنحها ما يوفر لها كمالها، ويحفظ وجودها، ويسدّ فقرها.

ولا يتوقف الإحساس بالحاجة، والشعور بالحيرة، والرغبة في التوجّه إلى قوّة تساعد الإنسان على الإنقاذ والخلاص على المؤمن وحده، بل هو إحساس بشري عام، يستوي فيه المؤمن بالله ﷻ والكافر به، إلاّ أنّ الناس ليسوا سواء في تفسير هذا الإحساس، وتوجيه هذا الشعور وجهته الفطرية، رغم إحساس الجميع به، وشعورهم بضغطه، فما من إنسان إلاّ وينتابه العجز، والحيرة، ويشعر بالضيق، ويحس بالحاجة إلى قوّة تسعفه، وتنقذه من محنته وحيرته، وتقطع يأسه وشعوره بالعجز والضياع في هذا العالم. وعند هذا الحد من الإحساس المشترك بين أفراد النوع الإنساني، يبدأ الافتراق بين المؤمن بالله ﷻ والكافر به. فالمؤمن يعرف مصدر توجّهه، ومبدأ حياته، وهو الله ﷻ، فيتوجّه إليه بروح مؤمنة، مملوءة بالأمل والثقة والرجاء، في حين يظلّ نقيضه الكافر بالله ﷻ، يعيش حالة من الحيرة والضياع، والبحث غير المجدي، وهو يعيش الإحساس ذاته، ولكن لا يدري إلى أين يتوجّه، لا يعرف الجهة التي تبث هذا الإحساس والألم، ولا يستطيع اكتشاف الرحمة والحنان، الذي يغمر عوالم الوجود، ويتّسع للتجاوب مع هذا الإحساس، لذلك فهو يحمل هذا الإحساس بين

جنبيه وخزاتٍ تباعد بينه وبين الاستقرار والطمأنينة، ويأساً يسد أمامه منافذ الرجاء والخلاص، وذلك رغم كل القدرات المادية المتوفرة لديه، ورغم ظنه أنه مستغن عن الله ﷻ، مكتف بما عنده. فهو يظلّ يعيش حاجة التوجّه واللّجوء إلى الله ﷻ، رغم جهله به، واستكباره وغروره الذي قاده إلى جحيم اليأس والمعاناة، فثغرة الإحساس بالحاجة، وتوجّه النفس الفطري في هذه الحالة نحو جهة الغنى والإفاضة، يشكّل قانوناً طبيعياً لحركة النفس، وكيفية تصرفها في لحظات الضيق والشدّة، ومن ثم ليس الدعاء مِلْك جنس دون جنس، ولا حق مخلوق دون سائر المخلوقات، وإنما هو ميراث مشترك بين المخلوقات كلها، فما من إنسان إلا وله لحظات تضرعٍ وتذلُّلٍ أمام رب الكائنات، وخالق المخلوقات، يتقدم فيها إلى المعبود الكريم، والرّب الرحيم، بطلب يختلف من حالة إلى حالة أخرى، فقد يتوجه إليه بدعاء الحمد والثناء مقابل النعم التي أسبغها الله ﷻ عليه في حياته، وقد يطلب إليه المغفرة والعفو تجاه الذنوب والمعاصي التي ارتكبها طوال حياته، لأن نفسه أمارة بالسوء، وعدوه الشيطان يجري منه مجرى الدم، وقد يُهرع إليه ﷻ يسأله التفضل، والتكرم بنعم الدنيا ووسائل التعيش فيها ليقوى على متطلبات الحياة الدنيوية. فالدعاء سمة من أعظم سمات العبودية لله ﷻ، ووسيلة من أسهل وسائل التقرّب إليه، ولذا مهما علتْ درجة الإنسان في الدنيا، وعظمت رتبته بين الخلائق فإنه يبقى بأمس الحاجة إلى أن يناجي ربّه، ويتضرع إلى معبوده، ويدعوه على وجه الاستمرار بما يدفع عنه الشر، والمصيبة، ويجلب إليه الخير والمنافع، وأمْر المؤمن يختلف عن سائر الناس في هذه القضية، وذلك لأنه بالدعاء يعبد ربه ﷻ الذي أمره به قائلا: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (٨)، فالدعاء بالنسبة للمؤمن عبادة وتضرع، وخشوع وتذلل بين يدي الخالق الدّيان، والمالك الرحمان، ومادام أن الجميع بحاجة إلى الدعاء، فلا شك في أن الصالح والطالح، والملتزم والفاسد، والتقيّ والشقيّ كل هؤلاء في هذه الصفة سواء، يحتاجون إلى الدعاء ، ويفتقرون إلى أن يدعوا الله ليكشف عنهم البلاء، ويجزل لهم العطاء، ومن ثم لا يلبث الدعاء أن يَسْكُب "في قلب المؤمن النداوةَ الحلوة، والوُدَّ المؤنس، والرضى المطمئن، والثقة واليقين، ويعيش منها المؤمن في جناب رَضِيّ، وقربى ندية، وملاذ أمين، وقرار مكين"[2].

ثمّ إن الإنسان بطبيعة تكوينه، وحقيقة وجوده، يتعرّض في حياته لمشاكل، ونكبات، وآلام، وإحساس بالخيبة، وقصور عن الأهداف، فليس كل شيء في هذه الحياة يتحقق للإنسان كما يريد، ولا كل شيء يجري وفق مشيئته، وبذا تبقى الحاجة قائمة، والرغبة غير مشبعة، والشعور بالحاجة متعاظما في نفس الإنسان، والتوتر مستمرا بين ذاته، وبين الواقع المحيط به، وتلك حكمة الله الخبير في الخلق، جعل كل ذلك لئلا يشعر الإنسان بالاستغناء والطغيان، وليبقى مرتبطا بخالقه، متوجّها إليه، ساعيا نحو الكمال، لإحساسه العميق بوجود الهوّة بينه وبين هذا الكمال المنشود، لأن الشعور بالاستغناء موت وانتحار لكل قوى الإنسان، وسبب في الطغيان والعدوان والتباعد عن الحق والخير لان للحاجات، وللآلام والشدائد التي يمرّ بها الإنسان ، من ضعف وفشل في الحياة، ومرض، وقصور عن بلوغ الغايات، آثارا تكاملية، ومردودات إصلاحية على النفس البشرية، تساعد الإنسان على اكتشاف ذاته، ومعرفة قانون الاتزان، وتشخيص الحدّ الطبيعي الذي يجب أن يلتزم به في نظرته إلى الأمور وتقويمها، وفي سلوكه مع الآخرين، وموقفه منهم .

لذا جُعِلَ الدعاء في الإسلام وسيلة لربط الإنسان بالله ﷻ، والتوجّه إليه، والاعتراف بين يديه بالذنوب والجرائم، وإظهار حاجة الإنسان وفقره، وضراعته، ورغبته في إصلاح نفسه، وإنعاش حياته، لكسر كبرياء الإنسان، وتعريفه بحقيقة ذاته، وإشعاره بضعفه، وبحاجته إلى خالقه في الخلق والإيجاد والإمداد بضرورات البقاء، ليبني ضمن هذه النظرة مفهومه عن الإنسانية جميعها، وليضع نفسه ضمن هذا المفهوم فيعي وجوده، وعلاقاته، وقيمته، من خلال هذا التوجّه والارتباط بالله ﷻ، بعيدا عن الكبرياء والطغيان والعدوان.

الدراسة والتحليل

لقد اتسم الدعاء القرآني بعديد من السمات في التركيب، كسمة التقديم والتأخير، وسمة التوكيد، وسمة التعريف والتنكير. وسمة التقديم والتأخير يعتبر من المباحث البلاغية الهامة في علم المعاني، ومن أكثر من اشتهر في هذا الباب هو الإمام عبد القاهر الجرجاني حيث عالج هذا الموضوع في كتابه معالجة قلما تحدث عنه معاصروه في مؤلفاتهم، واعتنى بها عناية تفوق عناية المؤلفين في زمانه، ومما قاله في هذا الباب: "هو بابٌ كثيرُ الفوائد، جَمُّ

المحاسن، واسعُ التصرُّف، بعيدُ الغاية، لا يَزالُ يَفْتَرُّ لك عن بديعةٍ، ويُفْضي بكَ إلى لَطيفة، ولا تَزال تَرى شِعراً يروقُك مسْمَعُه، ويَلْطُف لديك موقعُه، ثم تنظرُ فتجدُ سببَ أَنْ راقكَ ولطفَ عندك، أن قُدِّم فيه شيءٌ، وحُوِّل اللفظُ عن مكانٍ إلى مكان"[3]. فإذا كانت اللغة العربية تحظى بهذه الميزة السامية فإن مصدرها الأول الذي هو القرآن الكريم خير ميدان للحصول على مثل هذه الميزات والسمات الفريدة، والدعاء مثله مثل الأساليب البلاغية المتعددة التي أخذت نصيبها وافرا من اهتمام القرآن الكريم، ومن خلال الدراسة في آيات الدعاء في القرآن الكريم يظهر بوضوح أن هذا الأسلوب تم فيه على مستويات متعددة، فمن التقديم والتأخير ما اختصت به المفردات الواردة في الدعاء، ومنه ما اختص بجزء من الجملة، ومنه ما اختص بتقديم وتأخير الجمل العديدة داخل آيات الدعاء الواحد. والجزء المتعلق بالمفردات وإن لم يكن موضع اهتمام شديد لدى بعض علماء البلاغة، والسبب في ذلك هو أن اهتمام أهل البلاغة في العموم انصب في باب التقديم والتأخير على دراسة المسند إليه ودلالته المستهدفة من قبل أصحابها، كما انصب على دراسة تقديم المعمولات على عواملها، وما في ذلك من أسرار ونكات بلاغية، ولكن بسبب أن له أثرا بارزا يتم على مستوى الدلالة فقد اهتم به بعض من العلماء غير البلاغيين ضمن مؤلفاتهم مهتمين ببيان بعض أسراره البلاغية، ومثال ذلك ما ورد عند السهيلي-رحمه الله- في كتابه (نتائج الفكر في النحو) حيث تحدث عن أسباب التقديم قائلا: " ما تقدم من الكلام فتقديمه في اللسان على حسب تقديم المعاني في الجنان، والمعاني تتقدم بخمسة أشياء: إما بالزمان، وإما بالطبع، وإما بالرتبة، وإما بالسبب، وإما بالفضل..."[4]. وتحدث عنه الزركشي-رحمه الله- في كتابه (البرهان في علوم القرآن) وقد وصلت أسباب التقديم عنده إلى ما يربو على عشرين سببا. وتناوله السيوطي -رحمه الله- في كتابه (الإتقان في علوم القرآن). ومما ورد في باب تقديم المفردات بعضها على بعض تقديم ذكر إسماعيل عليه السلام على إسحاق عليه السلام في دعاء أبيهما خليل الله إبراهيم عليه السلام، عليه السلام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[]، وذلك -والله أعلم- أراد به أن يراعي الترتيب الزمني، فلقد أكرم الله ﷻ خليله عليه السلام بإسماعيل عليه السلام قبل أخيه إسحاق عليه السلام بعد سن الكبر. ومن هذا النوع هو ما ورد في الدعاء القرآني من تقديم الدنيا على

الآخرة في قوله ﷻ حكاية عن عباده المؤمنين: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ()، وقوله ﷻ حكاية عن كليمه موسى عليه السلام: ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ ()، وقوله ﷻ حكاية عن نبيه يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ () ففي كل من هذه المواضع الثلاثة ورد ذكر الدنيا متقدما على ذكر الآخرة، والظاهر —والله أعلم- أنه روعي فيه أيضا الترتيب الزمني، فالدنيا هي المرحلة الأولى التي يقضي فيها عباد الله ﷻ دورهم الأول الذي ينطوي على الأعمال، وعلى هذا الأساس فهي مرحلة العمل المتقدمة على مرحلة الحساب والجزاء، فالداعي الذي يطلب من ربه أن يمنحه الحسنة في الآخرة يريد أن يرى لها مثالا في الدنيا ولو بصورتها الصغيرة المتمثلة في السعادة والسرور الدنيويين، وأن يفرح بها هناهنا ويتذوق حلاوتها قبل الرحيل إلى المرحلة الثانية التي عُبّر عنها بالآخرة في القرآن الكريم عموما، وفي هذا الدعاء خصوصا، وكذلك الأمر بنسبة ما ذُكر في دعاء يوسف عليه السلام، فهو يطلب من الله ﷻ أن يتوفاه على الإسلام، ويلحقه بالصالحين، وأن يتولاه في الآخرة كما تولاه في الدنيا، وحفظه من مكائد الكائدين، ومن فتن المفسدين[9]. ومما ورد من هذا النوع هو تقديم العبادة على الاستعانة في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٨٧] أن فعل (نعبد) قُدّم على (نستعين)، وذلك إما لأن العبادة أهم، فهي مما يتقرب بها العبد إلى الله ﷻ، وإما لأنها وسيلة، وتقديم الوسائل في طلب الحاجة أدعى للإجابة[11].

ومن ذلك أيضا تقديم (السادة) على (الكبراء) في دعاء أهل النار في قوله ﷻ حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (67) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ ([٨])وذلك لأنهم كانوا أقوى بطشا، وظلما من السادة على الأتباع في حالة عدم الإطاعة، وفي الوقت نفسه يقصد هؤلاء الأتباع بهذا كله أن يعتذروا عما فعلوه من التقليد الأعمى، وأن يتشفوا أيضا بتعذيب هؤلاء السادة قبل الكبراء، وفي مقام التشفي عموما يقدم الذي يراد به التشفي أولا، يقول الألوسي —رحمه الله- إن السادة قُدّموا: " لما أنه كان لهم قوة البطش بهم (الأتباع المستضعفين) لو لم

يطيعوهم، فكان ذلك أحق بالتقديم في مقام الاعتذار وطلب التشفي"[13]. ومما ورد على لسان أهل النار في هذا الباب هو تقديم (الجن) على (الإنس) فيما يقوله ﷻ حكاية عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ [14]، وذلك –والله أعلم– لأن الجن أشد إضلالا وإغواء، ولأن رئيس هذه العصابة وهو إبليس اللعين قد تحدى الله ﷻ بأنه سيُغوي عباده المؤمنين غير المخلصين، يقول الله ﷻ حكاية عنه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [15]،وأيضا قوله: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [16]. وكلمتا الجن والإنس وردتا في القرآن الكريم اثنتي عشرة مرة، في تسع منها تقدم ذكر الجن على الإنس، بينما في ثلاث منها تقدم ذكر الإنس على الجن[17].

ومن أمثلة التقديم ما ورد من تقديم كلمة (الأزواج) على كلمة (الذرية) في قوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[18]، ولا يخفى ما في ذلك من مراعاة الترتيب الواقعي الطبيعي، فلا تصور لوجود الذرية بغير الأزواج، فحتى تكون هناك ذرية لابد أن تكون بين الرجل والمرأة علاقة الزواج الشرعية، وقيل في ذلك أنه إشارة إلى الارتباط الوثيق بين الزوجة الصالحة، والولد الصالح، لأن الذرية التي تكون سببا للمسرّة وقرار الأعين هي الذرية الصالحة التي تبَرّ بوالديها، كما أن الطلب بقرار الأعين في الأزواج لا يتحقق إلا بوسيلة واحدة، وهي توفر صفة الصلاح فيهن، تلك الصفة التي تستقطب حولها صفات الحياة السعيدة كلها بين الأزواج. ولقد راعى القرآن الكريم تقديم ما حقه التقديم في الطبيعة، والفطرة في موضع آخر، وهو في دعاء الملائكة الذين يحملون العرش للمؤمنين حيث يدعون الله ﷻ : ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[19]، فقد قُدّم في هذا الدعاء ذكر الآباء على الأزواج والذريات، وإضافة إلى ما في ذلك من مراعاة الترتيب الزمني الطبيعي لا يخفى ما فيه من تقدير للآباء، واعتراف بجميل ما يقدمونه من الخدمات المتنوعة لأهل بيتهم من الأزواج والأولاد. ولما أراد موسى عليه السلام أن يدعو على الطاغية المتجبر فرعون فهناك قدّم ذكر (الزينة) على (الأموال)١

في قوله ﷻ حكاية عنه عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾[20]، وذلك؛ لأن الزينة هي " ما يُتزين به من لُبس، أو حُليّ، أو فرش، أو أثاث، أو غير ذلك"[21]، وكل ذلك من الزينة الظاهرية التي تظهر أثرها جليا على الإنسان، فتُفتن الناس في دينهم وحياتهم، وكان من المعروف أن فرعون أُعطي ما كان يتباهى به على قومة وأتباعه الذين تبعوه وأطاعوه، فلذلك دعا كليم الله موسى عليه السلام ربه ﷻ أن يطمس على أموالهم التي صارت سببا في تلك الزينة المفتنة للناس في دينهم، ولقد ذكر الله ﷻ في قصة قارون أن الناس كانوا يُفتنون بزينته التي كان يخرج بها على الناس، يقول ﷻ: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[□□]. وكذلك إبراهيم عليه السلام لما أراد أن يدعو ربه بتوفير الأمن والرزق لعائلته -بعدما تركهم في صحراء مكة القاحلة- قدّم (الأمن) على (الرزق) في دعائه: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (36) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [□□] فهو عليه السلام بعدما دعا ربه ﷻ بتوفير الأمن لهم في قوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ ثنّى ذلك بتوفير الرزق لهم أيضا في قوله: ﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ وذلك لأن الرزق لا يُنال إلا إذا كان متوفرا، فالأمن هو الذي يُهيئ الجو لأن يتعايش الناس بسلام، ويرتزقوا ويكتسبوا في ظلال هدوئه من الرزق والقوت ما به يَحيَون، ويَتقوّون على شدائد الحياة في مثل هذه الصحراء القاحلة، والأرض الجدباء، يضاف إلى ذلك أن أمن البلد يجلب التجار وتجارتهم إليه [24] .

ومن صور التقديم الواردة في الدعاء القرآني هو أن يتقدم جزء من الجملة الدعائية على جزئها الآخر، وقد ورد ذلك في عدة أشكال توزعت على آي الدعاء المتنوعة في القرآن الكريم، وذلك ليكون " مشيرا إلى مغزى، دالا على هدف، حتى تصبح الآية بتكوينها تابعة لمنهج نفسي يتقدم عندها فيها ما تجد النفس تقديمه أفضل من التأخير، فيقدم مثلا بعض أجزاء الجملة حين يكون المحور الذي يدور حوله الحديث وحده، فيكون

هو المقصود والمعنيّ، والنفس يتقدم عندها من يكون هذا شأنه، فلا جرم أن يتقدم في الجملة كما تقدم في النفس"[25]. ومن الأشكال التي اشتمل عليها الدعاء في القرآن الكريم من هذا النوع أن يتقدم المفعول به على الفعل، وذلك كقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[26]،فقد تقدم في هذا الدعاء الضمير المنصوب(إياك) الذي هو المفعول به في الجملة مكررا، وذلك يدل على "التنصيص على تخصيصه ﷻ بكل واحدة من العبادة، والاستعانة؛ ولإبراز الاستلذاذ بالمناجاة والخطاب" [27]؛ وبذلك يكون هذا التقديم من باب القصر، ويكون المعنى مع هذا القصر: " نخُصُّك بالعبادة، لا نعبد غيرك، ونخصك بالاستعانة، لا نستعين غيرك" [28]. وبذلك يكون قصر الاستعانة على الله ﷻ دون غيره من باب القصر الحقيقي. كما أن التقديم نفسه يدل على أمر آخر هو الاهتمام والعناية بأمر المقدَّم، قال القزويني –رحمه الله– :" ويفيد التقديم وراء التخصيص اهتماما بشأن المقدّم"[29]، وهذا هو ما رجّحه أبو حيان –رحمه الله– بقوله: "التقديم عندنا إنما هو للاعتناء، والاهتمام بالمفعول"[30] ويرى الدكتور محمد أبو موسى–حفظه الله– أنه لا مانع من اجتماع ظاهرتين بلاغيتين في أسلوب واحد، كاجتماع التخصيص، والعناية في تقديم المفعول (إياك) على الفعل (نعبد ونستعين)، وذلك لأن النكات البلاغية لا تتزاحم [31] فيما بينها، فمن الممكن أن يشتمل الأسلوب الواحد على مجموعة من اللطائف البلاغية، وخاصة في كلام الله المعجز الذي لا يشبه كلام العباد من الجن والإنس، وإليه ذهب أهل البلاغة ومعظم المفسرين. وهناك من يُرجع التقديم للناحية اللفظية، وأنه ورد لمشاكلة رؤوس الآي على اعتبار ما قبله ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ كالعلوي الذي لا يرى منافاة بين أن يكون التقديم هنا راجعا للأمرين معا، أي: للاختصاص، ولمراعاة رؤوس الآي [32]، ولكن مهما كان التفسير وراء ذلك التقديم فإنه في نهاية الأمر يرمي نحو حقيقة واحدة تتمثل في أن اللهﷻ وحده هو المحور الأساسي الذي يتعلق به قلب المؤمن في عباداته، ومعتقداته. وهذا النوع من التقديم مظهر مظاهر القوة في لغة القرآن الكريم؛ لأنه يُضفي على الكلمة أو الجملة المقدَّمة عن مكانها دلالةً جديدة لم تكن لها قبل التقديم مع الإيجاز والاختصار الذي لا يُحتاج معه إلى إضافة ألفاظ جديدة تقوم بمهمة تأدية المعاني الجديدة. ومن أشكال تقديم بعض أجزاء الجملة على الأخرى هو أن يتقدم أحد مفعولي الفعل الواحد على

الآخر، كما في قوله: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾[33] حيث قُدّم المفعول الثاني (من لدنك) على المفعول الأول (وليّا ونصيرا) لـ(جعل)، لما في ذلك من تشريف بإضافته إلى كاف الخطاب الموجه إلى الله ﷻ، فكان هو الأهم في الجملة، فلذا قُدّم للاهتمام والعناية، وجاء المفعول الأول (وليا ونصيرا) بالتنكير ليدل على التعظيم، أي: وليّا عظيما، ونصيرا عظيما، وهذا المعنى هو المتناسق مع سياق الدعاء، لأن النصير العظيم هو الأقدر على إنصافهم من هؤلاء الظلمة الجبابرة، وإلى هذا التأويل أشار أبو السعود –رحمه الله– بقوله: " المرادُ: واجعل لنا من لدنك ولايةً ونُصرةً، أي: كن أنت وليَّنا وناصِرَنا" [34] فهم طلبوا من الله ﷻ أن يكون نصيرهم ينصرهم على أعدائهم، وينصفهم منهم لأن غيره من عباده لا يقدرون على هذا العمل العظيم الذي عُبّر عنه في هذا الدعاء بالتنكير.

ومن أنواع تقديم هذا الباب أن يتقدم الجار والمجرور على الفعل، أو يتقدم المسند على المسند إليه كما في قوله ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[35]، ففي هذا الدعاء الإبراهيمي تقدم المتعلق(الجار والمجرور)، أو المسند على المسند إليه وهو عبارة عن (عَلَيْكَ) (وإِلَيْكَ) مكررا على (تَوَكَّلْنَا) و(أَنَبْنَا) و(الْمَصِيرُ)، والتقديم في كل هذه المواضع كان للقصر، في (عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا) قُصر التوكل على الله ﷻ، وأن خليل الله ﷻ إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين يتوكلون عليه وحده، ولا يتوكلون على من سواه، وهو قصر حقيقي تحقيقي من قصر الصفة على الموصوف، وكذلك الأمر بخصوص المثالين الآخرين حيث قُصر في كل منهما الإنابة، والرجوع إلى الله ﷻ عليه وحده دون غيره، ولا يخفى ما هذا القصر من الجمال الذي أضفاه على المعنى المطلوب، وهو إظهار قوة إيمان هؤلاء الإبراهيميين بربهم ﷻ. وهذا النوع من التقديم ورد في ثلاثة مواضع أخرى –غير ما ذُكر– من آيات الدعاء في القرآن الكريم كله، وهي عبارة عن دعاء شعيب عليه السلام ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ

اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [36]، ودعاء الذين آمنوا مع موسى عليه السلام: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [37]، والدعاء الذي أُمر به النبي ﷺ في قوله ﷻ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [□□].

ومن صوره أيضا تقديم شبه الجملة (الجار والمجرور، والظرف) على المفعول به، فمن ذلك مثلا ما ورد على لسان فتية الكهف في قوله ﷻ: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [39] حيث قدّموا (مِنْ لَدُنْكَ)، و (لَنَا) على المفعول به (رَحْمَةً) و(رَشَدًا)، وذلك للاهتمام بالمقدم، فأصحاب الكهف لم يكونوا بحاجة إلى أي نوع من أنواع الرحمة، وإنما كانوا بحاجة إلى رحمة شاملة وعظيمة، وهذه لا تتحقق إلا أن تكون من قبل الله ﷻ، ولذلك قدّموا (من لدنك) على (رحمة) ليدل على هذا النوع من الاهتمام بأمر المقدم، وذلك " أبلغ مما لو قالوا: آتنا رحمة، لأن الخلق كلهم بمحل الرحمة من الله، ولكنهم سألوا رحمة خاصة وافرة"[40]. ومثله أيضا في قوله ﷻ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [41]، وقوله ﷻ: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ **إِنَّكَ** [42]، وقوله ﷻ: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [43]، وقوله ﷻ: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [44]، ففي دعاء موسى عليه السلام قُدّم (لي) على (صدري) للدلالة على "أن منفعة شرح الصدر راجعة إليه، فإنه ﷻ لا يبالي بوجوده وعدمه، وقس عليه (يسر لي أمري)"[45]، وإليه ذهب أبو السعود –رحمه الله– معتبرا أن هذا التقديم للعناية والاهتمام بالمقدم. ومن هذا النوع أيضا قوله ﷻ: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [□□].

ومن السمات التركيبية للأدعية القرآنية أنه كُثر فيها التوكيد، والتوكيد –كما هو معروف– يُستخدم للمخاطب أثناء إنكاره للخبر، وهو بحسب حالة المخاطب يتفاوت قوة وضعفا، فكلما قوي إنكاره جيء بالخبر له أقوى توكيدا، وكلما تخفف جاء التوكيد في حقه

خفيفا، فالتوكيد والإنكار في تصاعد متناسق يأخذا بالألباب [47]، ومن أوضح الأمثلة على ذلك في القرآن الكريم ما جاء من خطاب الله ﷻ في شأن أصحاب القرية: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (14) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (15) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [□□] وقد أُكّد الخبر للمكذبين بـ(إن) في الأول، ثم أكّد بقوة للمنكرين في الأخير، حيث جيء بـ(إن)، ولام التوكيد في (لمرسلون). ولكن توكيد الأدعية القرآنية ليس من هذا القبيل، فتوكيدات التي وردت فيها ليست راجعة إلى أحوال المخاطب المختلفة؛ لأن المخاطب في الدعاء هو الله ﷻ، وهو العلام بذوات الصدور، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، وإنما هي راجعة إلى مراعاة حال الداعين أنفسهم، فهناك " ضروب من التوكيد لا يُنظر فيها إلى حال المخاطب، وإنما ينظر فيها المتكلم إلى حال نفسه، ومدى انفعاله بهذه الحقائق، وحرصه على إذاعتها، وتقريرها في النفوس، كما أحسّها مقررة أكيدة في نفسه"[49]، ولهذا النوع من التوكيد أغراض عديدة وردت أمثلتها في عديد من الأدعية القرآنية، فمن هذه الأغراض مثلا: أن يظهر الداعي يقينه بمضمون الجملة المؤكدة في الدعاء، ومن ذلك مثلا قوله ﷻ حكاية خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [50] فقد أكّد على صفتي العزة والحكمة لله ﷻ، وذلك تحقيقا لما يحس في نفسه من قوتها. ومن هذا النوع وردت أمثلة عديدة. ( ). ومن هذه الأغراض أيضا: أن يظهر الاهتمام بالمؤكَد كما في قوله ﷻ حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [51] حيث أكّد على ابنه من أهله، وأن هذا الأمر يهمه، وأنه يريد أن يعرف مصيره، فهذا الأمر بالنسبة له ذو أهمية. ومنها أيضا: أن يظهر ضعفه وحاجته إلى ربه، كما في قوله ﷻ: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [52]، وكما في دعاء موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [53]، ففي كل من الدعائين يظهر الأنبياء – عليهم السلام- ضعفهم، ويبثون إلى الله ﷻ شكواهم وحاجتهم. ومنها أيضا: أن يظهر الندم، والاعتذار، وذلك كما في قوله ﷻ: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ

عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[54]، وقوله ﷻ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[55]، فقد وردت الجملتان في الدعائين مؤكدتين، وذلك لإظهار الندم والحسرة رغبة في التوبة والإنابة[56].

ومن سمات التركيب المؤثرة في الدعاء شيوع التعريف والتنكير فيه، وقد تعددت صوره الواردة في الأدعية القرآنية، فمن أكثر صور التعريف شيوعا في الدعاء هوالتعريف بالضمير الظاهر، وأكثر هذا النوع يرد بياء المتكلم و(نا) المتكلمين، وفي معظم الأحيان يدل على الاختصار مثل قوله ﷻ حكاية عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾[57]، ويكثر في معظم الأمثلة حذف الياء بعد إضافة ربّ إليها كما هو ظاهر في الآية المذكورة. ومن الأمثلة أيضا قوله ﷻ : ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[58]، وقوله ﷻ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[59]. ومن الملاحظ أن كلمة (رب) وردت في الأمثلة السابقة مضافة إلى الضمير، ومن أمثلة تعريفها إلى المعرّف بالألف واللام قوله ﷻ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[60]. ومن الأمثلة ما ورد فيها التعريف بإضافة كلمة (خير) إلى ما بعدها، كما في دعاء عيسى عليه السلام: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[61]. ومن الإضافات الرائعة في الأدعية القرآنية ما كان إلى كاف الخطاب، كما في قوله ﷻ: **لَعَلَّى** رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[62]، وقوله ﷻ: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[63]. ومن صور التعريف ما كان بالألف واللام، مثل قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾[64]، وقد كثر هذا النوع من التعريف

أيضا في القرآن الكريم في أساليب مختلفة، وتراكيب متنوعة، وعلى ألسنة عديد من الداعين. وكان لاسم الموصول أيضا نصيب في القيام بدوره في صور التعريف، كما في قوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [65]، وقوله ﷻ: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [66]. ومن صور التعريف ما كان بالعلمية وقد ورد في أكثر من عشرين موضعا، مثل قوله ﷻ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [67]، وأفعم مثال في هذا ما ورد في دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [68]. ومن التعريف ما تم في الأدعية القرآنية باسم الإشارة، كما في قوله ﷻ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [69]، وأمثلتها في القرآن الكريم عديدة.

أما التنكير فلم يكن على كثرة التعريف في الأدعية القرآنية، فقد ورد في 114 موضعا، ودلّ على عدة معاني كالتعظيم، والتكثير، والتقليل، وبيان النوع، والعموم. فمما ورد للدلالة على التعظيم قوله ﷻ: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [70]، فالتنكير في (مائدة) يدل على التعظيم، أي: مائدة عظيمة. ومما دلّ على التكثير ما ورد في قوله ﷻ حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [71] من كلمة (أفئدة) نكرة، أي: قلوبا كثيرة مجازا عن أصحابها الكثيرين. ومما ورد على معنى التقليل تنكير كلمة (عقدة) في قوله ﷻ: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ [72] التي تدل على أن موسى عليه السلام لم يطلب الفصاحة الكاملة [73]. وعلى معنى بيان النوع ورد ما في قوله ﷻ: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [74] من تنكير (خروج) الدالة على نوع من أنواع الخروج. أما ما ورد على معنى العموم فهو كما في كلمة (حسنة) في قوله ﷻ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا

حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[75] من تنكير يدل على العموم، أي: حسنة عامة.

نتائج البحث

وصلنا من خلال هذا البحث إلى ما يليه من نكات:

1- الدعاء في الإسلام وسيلة لربط الإنسان بالله ﷻ، والتوجّه إليه، والاعتراف بين يديه بالذنوب والجرائم، وإظهار حاجة الإنسان وفقره.

2- لقد اتسم الدعاء القرآني بعديد من السمات في التركيب، كسمة التقديم والتأخير، وسمة التوكيد، وسمة التعريف والتنكير.

3- وصور التقديم الواردة في الأدعية القرآنية هي: تقديم شبه الجملة (الجار والمجرور، والظرف) على المفعول به، و تقديم الجار والمجرور على الفعل، و تقديم المسند على المسند إليه، وتقديم جزء من الجملة الدعائية على جزئها الآخر. فقد تم التحليل و الدراسة لكل من هذه الصور مع الأمثلة من خلال هذا البحث.

4- و هذه السمات تعتبر من المباحث البلاغية الهامة.

5- ومن أكثر من اشتهر في هذا الباب هو الإمام عبدالقاهر الجرجاني حيث عالج هذا الموضوع في كتابه معالجة قلما تحدث عنه معاصروه في مؤلفاتهم، واعتنى بها عناية تفوق عناية المؤلفين في زمانه.

الهوامش

1- سورة غافر، 40: 60.

2- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، الطبعة الخامسة عشرة عام 1408هـ - 1988م، 146/1.

3- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، تعليق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، 1410هـ - 1989م، 106/1.

4- السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن، نتائج الفكر، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم البنّا، دار الرياض، ص: 267.

5- سورة إبراهيم، 14: 39.

6- سورة البقرة، 2: 201.

7- سورة الأعراف، 7: 156.

8- سورة يوسف، 12: 101.

9- أنظر: البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر(المتوفى: 885هـ)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تخريج: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، عام 1415هـ - 1995م، 100/4.

10- سورة الفاتحة، 1: 5.

11- أنظر: الزمخشري، جار الله، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ضبط وتصحيح: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1415هـ - 1995م، 44/1.

12- سورة الأحزاب، 33: 68.

13- الألوسي، محمود بن عبدالله الحسيني، شهاب الدين، تفسير الألوسي المسمى بروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، 1405هـ - 1985م، 223/16.

14- سورة فصلت، 41 : 29.

15- سورة الحجر، 15: 39.

16- سورة ص، 38: 82-83.

17- أنظر: عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية،

1991م: 228.

18- سورة الفرقان، 25 : 74.

19- سورة غافر، 40: 8.

20- سورة يونس، 10: 88.

21- الكشاف للزمخشري: 2/ 351.

22- سورة القصص، 28: 79.

23- سورة إبراهيم، 14: 35-37.

24- الأندلسي الغرناطي، أبو حيان، محمد بن يوسف، البحر المحيط، دار الفكر، بيروت، 1412هـ - 1992م، 613/1.

25- بدوي، أحمد أحمد، من بلاغة القرآن، دار نهضة مصر، القاهرة، 1977م:ص: 112.

26- الفاتحة، 1: 1.

27- أبو السعود العمادي، محمد بن محمد، تفسير أبي السعود المسمى بإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، 1994م، 16/1.

28- الكشاف: 1/ 29.

29- الخطيب القزويني، محمد بن عبد الرحمن بن عمر، الإيضاح شرح الدكتور محمود عبد المنعم الخفاجي، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الخامسة، 1400هـ- 1980م، 229/1.

30- البحر المحيط: المجلد: 1، ص:40.

31- أنظر: أبو موسى، محمد محمد، الدكتور، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية، 1408هـ - 1988م. ص: 340.

32- أنظر: العلوي اليمني، يحيى بن حمزة، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة، وعلوم حقائق الإعجاز، ضبط وتدقيق: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1415هـ - 1995م.ص: 234-235.

33- سورة النساء، 4: 75.

34- تفسير أبي السعود: 2/ 113.

35- سورة الممتحنة، 60: 4.

36- سورة الأعراف، 7: 89.

37- سورة يونس، 10: 85.

38- سورة التوبة، 9: 129.

39- سورة الكهف، 18 : 10.

40- إبن عاشور التونسي، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهُر بن عاشور(المتوف: 1393هـ)التحرير والتنوير "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"، مؤسسة التاريخ، بيروت، 1420هـ - 2000م، 266/15.

41- سورة آل عمران، 3: 8.

42- سورة آل عمران، 3: 38.

43- سورة التحريم، 66: 11.

44- سورة طه، 20 : 25.

45- شهاب الدين الخفاجي، أحمد بن محمد بن عمر المصري الحنفي(المتوف: 1069هـ)حاشية الشهاب عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة ب: عِنَايةُ القَاضِي وكِفَايةُ الرَّاضِي عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي، دار صادر، بيروت،198/6.

46- سورة آل عمران، 3: 35.

47- أنظر: خصائص التراكيب: 48-49.

48- سورة يس، 36: 13-16.

49- أبو موسى، محمد، الدكتور، خصائص التراكيب، دار التضامن، مكتبة وهبة، الرياض، الطبعة الأولى، 1417هـ - 1996م. ص: 57.

50- سورة الممتحنة، 60: 5.

51- سورة هود، 11: 45.

52- سورة القمر، 54: 10.

53- سورة القصص، 28: 24.

54- سورة الأنبياء، 21: 87.

55- سورة الأعراف، 7: 23.

56- أنظر: التحرير والتنوير: 67/8.

57- سورة إبراهيم، 14: 40.

58- سورة الشعراء، 26: 83.

59- سورة البقرة، 2: 286.

60- سورة التوبة، 9: 129.

61- سورة المائدة، 5: 114.

62- سورة البقرة، 2: 129.

63- سورة الأحقاف، 46: 15.

64- سورة إبراهيم، 14: 35.

65- سورة الحشر، 59: 10.

66- سورة آل عمران، 3: 194.

67- سورة التوبة، 9: 129.

68- سورة إبراهيم، 14: 39.

69- سورة النساء، 4: 75.

70- سورة المائدة، 5: 114.

71- سورة إبراهيم، 14: 37.

72- سورة طه، 20: 27.

73- أنظر: الكشاف: 3/ 59.

74- سورة غافر، 40: 11.

75- سورة البقرة، 2: 201.